الإســلام والديمقراطيــة



[مـن سلسـلة محاضرات بعنـوان: الغـزو الفكري]

للشـيخ: أبـو حفص المقدسـي


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٠

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ..

يقول تعالىٰ: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**)، أما بعد:

لقد كَثُر الجدلُ المعرفي والخلاف الفكري في عالمنا المعاصر حول موقف الإسلام من عدد من الإشكالات المطروحة علىٰ الصعيد العالمي، ومن ضمن هذه الإشكالات موقفه من الديمقراطية، وازداد هذا الجدلُ حدَّةً وسخونةً مع محاولة عولمة هذه القيم وتعميمها؛ بحيث تُصبِح قيمًا إنسانية مشتركة عالمية، بل والمرادفة بين التقدم وبين تبني هذه القيم المعاصرة.

وباعتبار أن الإسلام دينٌ شاملٌ كاملٌ، له موقف من كل إشكال وكل قضية مطروحة؛ (جاءت فكرة هذه المحاضرة) لنعلم ما هو موقف الإسلام من الديمقراطية.

لقد غزت فكرة الديمقراطية العالم عبر مساحات واسعة من النشاطات الإعلامية والثقافية سواء علىٰ مستوىٰ الندوات أو المحاضرات أو اللقاءات المرئية أو صفحات التواصل الاجتماعي والجرائد وغيرها، أو عبر الحملات العسكرية لغزو البلدان العربية والإسلامية لنشر (الديمقراطية) في هذه البلاد وقمع الأنظمة (الديكتاتورية).

ولا شك أن في هذه الفكرة بريقًا قويًا خاصة بالنسبة للشعوب التي تعاني من القهر والاستبداد، وقد حَول هذا البريق فكرة (الديمقراطية) من بُعد فكري ونظري لترتيب السياسة في المجتمع إلىٰ ممارسات عملية تتعلق بحريات أساسية منها حرية التعبير والتنقل والتنظيم وغيرها.

فالناس عامة لا يكترثون في البحث عن الأسس الفلسفية أو الفكرية التي

تنطلق منها الديمقراطية، بقدر ما يهتمون ببعض المظاهر والممارسات السياسية التي يرتاحون إليها ويثنون عليها ويودون أن تكون جزءًا من واقعهم لعلهم ينعمون ببعض (الخيرات) التي تنعم بها الشعوب التي أقامت نُظمًا سياسية ديمقراطية وعلىٰ وجه الخصوص أمريكا وأوروبا.

وقد ساد هذا الانطباع الجماهيري العام عن الديمقراطية العالم الإسلامي والوطن العربي حتىٰ بات المفهوم الشعبي لها مرادفًا (للحرية). ولا ينتبه الكثيرون من الناس أن الحرية قد تكون أكثر شمولًا أو أقل اتساعًا من الديمقراطية، وأن لكل مفهومًا خاصًا ربما يتقاطع مع الآخر ولا يلتقي معه بالضرورة. وربما أن هذا الأمر هو الذي قاد بعض الأحزاب والمفكرين والباحثين المسلمين إلىٰ القول بأن الإسلام (ديمقراطي) وأن القيم الديمقراطية قيم إسلامية يجب الدفاع عنها، وبدلًا من أن يركزوا علىٰ البحث في مجال الحريات في الإسلام، انطلقوا يتحدثون عن الحداثة الإسلامية في ثوب ديمقراطي! ومن أجل ذلك لا بد أن نقوم بتعريف بعض الأمور:

أولًا: [تعريف الديمقراطية]

تعني كلمة الديمقراطية في أصلها الفردي حكم الشعب:

- وهي ترجع إلىٰ أصل يوناني مكون من مقطعين أحدهما demos وتعني الشعب والأخرىٰ crates وتعني حكم أو سلطة وبذلك تعني الكلمة في معناها اللغوي أي الشعب هو صاحب السلطة أو حكم الشعب.

- وقد عُرِّفت بأنها حكم الشعب بواسطة الشعب ومن أجل الشعب.

- وتشير عبارة (بواسطة الشعب) إلىٰ اشتراك المواطنين في صنع السياسة وممارسة الرقابة علىٰ ممثليهم أو نوابهم، وتعني عبارة من أجل الشعب أن الحكومة في خدمة الشعب ليس مجرد رعايا لهذه الحكومة.

- وعُرِّفت بأنها شكل من أشكال الحكم يمارس فيه الشعب كله أو القسم الأكبر منه سلطة الحكم من خلال نواب ينتخبونهم بأنفسهم بصورة دورية.

ثانيًا: [التطور التأريخي للديمقراطية]

ظهر التطبيق الأول للديمقراطية في بعض المدن اليونانية مثل (أثينا) التي كان يتكون سكانها من ثلاثة طبقات هي: الأرقاء، الأجانب، المواطنين الأحرار، وقد انفردت الطبقة الأخيرة دون (النساء والأطفال) بممارسة السلطة في المدينة بواسطة جمعية الشعب صاحبة السلطة العليا في سن القوانين وتعيين الحكومة والنظر في المسائل الخارجية بطريقة مباشرة حيث يجتمع المواطنون الأحرار الذين بلغوا سن 20 سنة في هيئة جمعية شعبية لاتخاذ القرارات اللازمة لتسيير شؤون المدينة.

ثالثًا: [المبادئ الأساسية التي يرتكز عليها المنهج الديمقراطي]

يعتمد المنهج الديمقراطي علىٰ جملة من المبادئ الأساسية التي تتولد عنها آليات وأجهزة دستورية تختلف صيغتها التفصيلية من نظام إلىٰ آخر، ويمكن إجمالها فيما يلي:

- الشعب صاحب السيادة ومصدر السلطات والشرعية.
- انبثاق السلطات بواسطة الانتخابات.
- الإقرار للأغلبية بأن تحكم وللأقلية بأن تعارض.
- التعددية الحزبية.
- التداول السلمي علىٰ السلطة.
- مراقبة الحكام وممارسة التأثير عليهم.
- فصل السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية.
- ضمان حريات المعتقد والتعبير والعمل النقابي.
- حفظ مصالح الضعفاء والأقليات.
- احترام حقوق الإنسان.

رابعًا: الإسلام والديمقراطية

إن النظـام السياسـي الإسـلامي له خصوصيَّة تميِّزه، فهو يسـتمدُّ أصولَـه وهُويته مـن الوحـي، فهـو قائـم علىٰ رؤيـة توحيديـة؛ توحيـد الله -عـزَّ وجـلَّ- ومـن ثَـم فهـو نظـامٌ متكامـلٌ متوازنٌ شـاملٌ، نظام يقـوم علىٰ عبودية الإنسـان لله وحدَه، وكذلـك هـو نظـامٌ يختلـف في الدوافـع والمحـركات والمقاصـد والغايـات عن كل نظـام سياسـي آخـر، وعـن كل منهـج بشـري محـدود جزئي قاصـر، خاصـة النِّظام الديمقراطـي، الـذي يقـوم علىٰ رؤيـة علمانية ماديـة، تختزل الإنسـان في جانبه المـادي البرَّانـي، فالديمقراطيـة نظـام مخالـف للإسـلام؛ يجعـل سـلطة التشـريع للشـعب، أو مـن ينـوب عنهـم (كأعضـاء البرلمان) ..

وعليـه: فيكـون الحكم فيه لغيـر الله تعالىٰ، بل للشـعب، ونوابه، والعبرة ليسـت بإجماعهـم، بـل بالأكثريـة، ويصبح اتفاق الأغلبيـة قوانين ملزمة للأمـة، ولو كانت مخالفـة للفطـرة، والديـن، والعقـل، ففي هذه النظم تم تشـريع الإجهـاض، وزواج المثلييـن، والفوائـد الربويـة، وإلغـاء الأحكام الشـرعية، وإباحـة الزنا وشـرب الخمر، بـل بهـذا النظـام يحارب الإسـلام ويحـارب المتمسـكين به. وقـد أخبـر الله تعالىٰ في كتابـه أن الحكـم لـه وحـده، وأنـه أحكـم الحاكميـن، ونهـىٰ أن يُشـرك به أحد في حكمـه، وأخبـر أن لا أحد أحسـن منـه حكمًا ..

قال الله تعالىٰ: (**فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ**)،

وقـال تعالـىٰ: (**إِنِ الْحُكْـمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَـرَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا إِيَّـاهُ ذَلِـكَ الدِّيـنُ الْقَيِّـمُ وَلَكِـنَّ أَكْثَـرَ النَّـاسِ لا يَعْلَمُـونَ**)،

وقال تعالىٰ: (**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ**)،

وقـال تعالـىٰ: (**قُـلِ اللَّهُ أَعْلَـمُ بِمَـا لَبِثُـوا لَـهُ غَيْـبُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِـرْ بِـهِ وَأَسْـمِعْ مَـا لَهُـمْ مِـنْ دُونِـهِ مِـنْ وَلِـيٍّ وَلا يُشْـرِكُ فِي حُكْمِـهِ أَحَـدًا**)،

وقـال تعالـىٰ: (**أَفَحُكْـمَ الْجَاهِلِيَّـةِ يَبْغُـونَ وَمَـنْ أَحْسَـنُ مِـنَ اللَّهِ حُكْمًـا لِقَوْمٍ يُوقِنُـونَ**).

والله عـز وجـل هـو خالـق الخلـق، وهـو يعلـم مـا يَصلـح لهـم ومـا يُصلحهـم مـن أحـكام، والبشـر يتفاوتـون في العقـول والأخـلاق والعـادات، وهـم يجهلـون مـا يصلـح لهـم فضلًا أن يكونـوا علىٰ علم بمـا يَصلـح لغيرهم، ولذا فـإن المجتمعات التـي حكمهـا الشـعب في التشـريعات والقوانيـن لم يُـر فيها إلا الفسـاد، وانحلال الأخـلاق، وتفسـخ المجتمعـات، مـع التنبيـه علىٰ أن هـذا النظـام تحـول في كثيـر مـن الـدول إلـىٰ صـورة لا حقيقـة لهـا، ومجـرد شـعارات يُخـدع بهـا النـاس، وإنمـا الحاكـم الفعلـي هـو رأس الدولـة، والشـعب مقهـور مغلـوب علىٰ أمـره.

ولا أدل علىٰ ذلـك مـن أن هـذه الديمقراطيـة إذا أتـت بما لا يهواه الحكام داسـوها بأقدامهـم، ووقائـعُ تزويـر الانتخابـات وكبـت الحريـات وتكميم أفواه مـن يتكلمون بالحـق؛ حقائـقُ يعلمها الجميـع، لا تحتاج إلىٰ اسـتدلال.

إن كثيـرًا مـن النـاس ليظنـون أن لفـظ "الديمقراطيـة" يعنـي "الحريـة"! وهذا ظن فاسـد، وإن كانـت الحريـة هي إحدىٰ إفـرازات "الديمقراطية"، ونعنـي بالحرية هنا: **حريـة الاعتقاد، وحرية التفسـخ في الأخـلاق، وحرية إبداء الـرأي**، وهذه أيضا لهـا مفاسـد كثيـرة علىٰ المجتمعات الإسـلامية، حتىٰ وصل الأمر إلـىٰ الطعن في الرسـل والرسـالات، وفي القـرآن والصحابـة، بحجـة "حريـة الـرأي"، وسُـمح بالتبـرج والسـفور ونشـر الصور والأفلام الهابطة بحجة الحرية، وهكذا في سلسـلة طويلة، كلها تسـاهم في إفسـاد الأمة، خلقيًـا، ودينيًّا.

وحتـىٰ تلـك الحريـة التـي تنـادي بها الدول مـن خلال نظـام الديمقراطية ليسـت علىٰ إطلاقهـا، فنـرىٰ الهـوىٰ والمصلحـة في تقييـد تلـك الحريـات، ففـي الوقـت الـذي تسـمح نظمهم بالطعن في الرسـول محمـد ﷺ والقرآن، بحجـة حرية الرأي: نجـد منـع هـذه الحريـة في مثـل الـكلام عـن "محرقـة النازييـن لليهود"! بـل يتم تجريـم وسـجن مـن ينكـر هـذه المحرقـة، مـع أنهـا قضيـة تاريخيـة قابلـة للإنكار.

وإذا كان هؤلاء دعاة حرية:

- فلماذا لم يتركوا الشعوب الإسلامية تختار مصيرها ودينها؟!
- ولماذا قاموا باستعمار بلدانهم وساهموا في تغيير دينهم ومعتقدهم؟!
- وأين هذه الحريات من مذابح الإيطاليين للشعب الليبي، ومن مذابح الفرنسيين للشعب الجزائري، ومن مذابح البريطانيين للشعب المصري، ومن مذابح الأمريكان للشعبين الأفغاني والعراقي، ومذابح الصين بحق مسلمين تركستان الشرقية والروسي في الشيشان وسورية والإيراني في العراق وسورية والأحواز؟!
- لماذا أكرهوا المسلمين في الأندلس والفلبين على ترك الإسلام؟! لماذا أكرهوهم في أوروبا على خلع الحجاب؟!

إن الإسلام يسمح بحرية الاعتقاد لكنه لا يسمح بالتطاول على الأنبياء أو السعي لهدم ثوابت الدين! فهناك قاعدة أساسية صريحة بالنسبة للحرية الدينية أو حرية الاعتقاد في الإسلام؛ قال الله تعالى: (**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**).

فلم يأمر الرسول -والمسلمون مِنْ بَعْدِه- أحدًا باعتناق الإسلام قسرًا، كما لم يُلْجِئُوا الناس للتظاهر به هربًا من الموت أو العذاب؛ إذ كيف يصنعون ذلك وهم يعلمون أن إسلام المُكرَه لا قيمة له في أحكام الآخرة، وهي التي يسعى إليها كل مسلم؟!

بل قد كفل الإسلام حرية المناقشات الدينية على أساس موضوعي بعيد عن المهاترات أو السخرية من الآخرين، وفي ذلك يقول الله تعالى: (**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**).

وعلى أساس من هذه المبادئ السمحة ينبغي أن يكون الحوار بين المسلمين

وغيـر المسـلمين، وقـد وَجَّـه القرآن هـذه الدعـوة إلـىٰ الحـوار إلـىٰ أهـل الكتـاب فقـال: {**قُـلْ يَـا أَهْلَ الْكِتَـابِ تَعَالَوْا إِلَـىٰ كَلِمَةٍ سَـوَاءٍ بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُـمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْـرِكَ بِـهِ شَـيْئًا وَلاَ يَتَّخِـذَ بَعْضُنَـا بَعْضًـا أَرْبَابًا مِـنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّـوْا فَقُولُوا اشْـهَدُوا بِأَنَّا مُسْـلِمُونَ**}.

وسـنكمل مـا تبقىٰ في المحاضرات القادمة بـإذن الله وذلك يوم الخميس القادم.

نرجـو مـن الإخوة التطوع لعمل قناة علىٰ اليوتيوب وقنوات علىٰ وسـائل التواصل لنتمكـن مـن نشـر الوعـي الفكري بيـن صفوف أبناء الأمـة وجزاكم الله خيـر الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * * * * * * * *